

قضايا و آراء

5 من ربيع الأول 1422 هـ 28 الأثنين مايو 2001 السنة 125-العدد 41811

من أسرار القرآن

الإشارات الكونية في القرآن الكريم ومغزي دلالتها العلمية - 2 -
أولم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما... -
الأنبياء:30 -

بقلم الدكتور: زغلول النجار



في الوقت الذي ساد فيه الاعتقاد الخاطئ بأزلية الكون بلا بداية ولا نهاية، وعدم محدوديته إلى ما لا نهاية، وسكونه وثباته (أي عدم حركته، علي الرغم من حركة بعض الأجرام فيه)، بمعنى أن هذا الكون اللانهائي الساكن كان موجودا منذ الأزل، وسيبقى إلى الأبد، وهي فرية أطلقها الكفار والملحدون من بني البشر في محاولة يائسة لنفي الخلق، والتنكر للخالق سبحانه وتعالى، في هذا الوقت نزل القرآن الكريم موجها أنظار هؤلاء الجاحدين من الكفار والمشركين والوثنيين إلى طلاقة القدرة الإلهية في إبداع خلق الكون من جرم ابتدائي واحد، وذلك في صيغة استفهام توبيخي، استنكاري، تقريري يقول فيه ربنا تبارك وتعالى:

أولم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون (الأنبياء:30).

وهذه الآية الكريمة واضحة الدلالة علي أن الكون الذي نحيا فيه كون مخلوق له بداية، بدأ الله تعالى خلقه من جرم ابتدائي واحد مرحلة الرتق، وهو القادر علي كل شيء، ثم أمر الله تعالى بفتق هذا الجرم الابتدائي فانفتق مرحلة الفتق وتحول إلي غلالة من الدخان مرحلة الدخان، وخلق الله تعالى من هذا الدخان كلا من الأرض والسماوات أي جميع أجرام السماء وما ينتشر بينها من مختلف صور المادة والطاقة مما نعلم وما لا نعلم وتعرف هذه المرحلة باسم مرحلة الإتيان بكل من الأرض والسماء، وقد جاء وصف المرحلتين الأخيرتين في الآية الحادية عشرة من سورة فصلت، والتي يقول فيها ربنا تبارك وتعالى موبخا كلا من الذين كفروا بالله تعالى فأنكروا الخلق، أو أشركوا مع الله تعالى معبودا آخر:

قل أننكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين، وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين، ثم استوي إلي السماء وهي دخان فقال لها

وتتراءى وحدانية الخالق سبحانه وتعالى في تعميم الزوجية علي جميع المخلوقات من الأحياء والجمادات, حتي يبقى الخالق في علاه, متفردا بالوحدانية فوق جميع خلقه.
ومع تسليمنا بكل ذلك فإن القرآن الكريم يبقى كلام الله الخالق, الذي أوحى به إلي خاتم أنبيائه ورسله صلي الله عليه وسلم, وتعهد سبحانه وتعالى بحفظه باللغة نفسها التي أوحاه بها اللغة العربية فحفظ كلمة كلمة, وحرفا حرفا تحقيقا للوعد الإلهي الذي قطعه ربنا تبارك وتعالى علي ذاته العلية فقال عز من قائل:

إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون (الحجر:9)
ولما كان القرآن الكريم هو كلام الله الخالق, وكان الكون من صنعته وإبداع خلقه, فلا بد أن يكون كل حرف وكلمة وآية في القرآن الكريم حقا مطلقا, وأن تكون كل الإشارات الكونية فيه ناطقة بالحقيقة المطلقة للكون ومكوناته, ولو وعي المسلمون ذلك حق الوعي لكان لهم قصب السبق في الكشف عن العديد من حقائق هذا الكون قبل غيرهم من الأمم بقرون عديدة, وكان هذا السبق من أفضل وسائل الدعوة إلي دين الله الخاتم في زمن التقدم العلمي والتقني الذي نعيشه.

(1) العلوم المكتسبة وخلق السماوات والأرض
للعلوم المكتسبة شواهد تؤيد فكرة الانفجار العظيم منها ما يلي:

(1) توسع الكون كدليل علي الانفجار العظيم:
علي الرغم من تأكيد القرآن الكريم الذي أنزل قبل أكثر من ألف وأربعمائة من السنين حقيقة توسع الكون يقول الحق تبارك وتعالى:
والسمااء بنيناها بأيد وإنا لموسعون
(الذاريات:47)

فقد بقي الفلكيون إلي مطلع العشرينيات من القرن الماضي مصرين علي ثبات الكون وعدم تغيره

وفي السنوات من 1914- 1925 م أثبت الفلكي الأمريكي ف.م سلايفر

أن معظم المجرات التي قام برصدها خارج مجرتنا درب اللبانة تتباعد عنا وعن بعضها بعضا بسرعات كبيرة.
وفي سنة 1929 م تمكن الفلكي الأمريكي الشهير إدوين هبل من تأكيد ظاهرة توسع الكون, وتوصل إلي الاستنتاج الصحيح أن سرعة تباعد المجرات الخارجية عن مجرتنا تتناسب تناسباً طردياً مع بعدها عنا, وفي سنة 1934 م اشترك هو وأحد من مساعديه في قياس أبعاد وسرعات تحرك 32 من تلك المجرات الخارجية بعيدا عن مجرتنا وعن بعضها بعضا.

من جانب آخر استطاع علماء كل من الفيزياء النظرية والفلكية تأكيد حقيقة توسع الكون بتوظيف القوانين الرياضية في عدد من الحسابات النظرية, ففي سنة 1917 م أطلق ألبرت أينشتاين نظرية النسبية العامة لشرح طبيعة الجاذبية كقوة مؤثرة في الكون المدرك, وأشارت المعادلات الرياضية المستنتجة من تلك النظرية إلي أن الكون الذي نحيا فيه كون غير ثابت, فهو

إما أن يتمدد وإما أن ينكمش وفقا لعدد من القوانين المحددة له, وجاءت هذه النتيجة علي عكس ما كان يعتقد أينشتاين وجميع معاصريه من الفلكيين وعلماء الفيزياء النظرية, ولقد أصاب أينشتاين الذعر حينما أدرك أن معادلاته تنبئ - رغم أنه - بأن الكون في حالة تمدد مستمر, فعمد إلي إدخال معامل من عنده أطلق عليه اسم الثابت الكوني ليلغي به تمدد الكون, ويؤكد ثباته واستقراره برغم دوران الأجرام التي يحتويها, وحركاتها المتعددة, ثم عاد أينشتاين ليعترف - أمام سيل ملاحظات الفلكيين عن تمدد الكون - بأن تصرفه هذا كان أكبر خطأ علمي اقترفه في حياته.

في السنوات 1917-1924 م قام الروسي أليكساندر فريدمان بإدخال عدد من التحسينات علي معادلات أينشتاين, وقدم نموذجين لتفسير نشأة الكون يبدأ كل منهما بحالة متفردة تتميز بكثافة لا نهائية, وتتمدد منها إلي حالات ذات كثافة أقل.

وتحدث فريدمان عن انحناء الكون, وعن تحديه تبعا لكمية المادة الموجودة فيه, فإن كانت تلك المادة أقل من قدر معين كمية حرجة وجب أن يستمر تمدد الكون إلي الأبد, وفي هذه الحالة يكون نظام الكون مفتوحا, أما إذا كانت كمية المادة بالكون أقل من الكمية الحرجة غدت الجاذبية علي قدر من القوة بحيث تحذب الكون إلي درجة تتوقف عندها عملية التمدد في لحظة معينة من المستقبل, عندها يبدأ الكون في الانطواء علي ذاته ليعود إلي حالة الكثافة اللانهائية الأولى التي بدأ بها الكون, وفي هذه الحالة يكون نظام الكون مغلقا.

وقد أثبت كل من وليام دي سيتر في سنة 1917 م وأرثر إينجتون في سنة 1930 م أن الكون كما صورته معادلات أينشتاين هو كون غير ثابت, ولكن تصور كل منهما للكون كان تصورا بدائيا, فبينما كان نموذج أينشتاين للكون نمودجا ماديا دون حركة, ونمودج دي سيتر حركيا دون مادة, جاء نموذج إينجتون وسطا بين النموذجين بمعنى أن الكون بدأ بحالة ساكنة, ثم أخذ في التمدد نظرا لطغيان قوي الدفع للخارج علي قوي الجاذبية, ولكن انطلاقا من فكر الإلحاد السائد في عصره اضطر إينجتون إلي فرض ماض لا نهائي للكون لينتخلص من حقيقة الخلق, وشبح الانفجار الكبير والذي سماه بالبداية الكارثة.

في السنوات 1932,1934 م اقترح ريتشارد تولمان نمودجا متذبذبا للكون يبدأ وينتهي بعملية الانفجار الكبير. وأخيرا اقترح آلان جوت نمودج الكون المتضخم, والذي يقترح فيه أن الكون المبكر تمدد في أول الانفجار تمدا رأسيا سريعا جدا مع سطوع فائق. ثم أخذت معدلات التوسع في التباطؤ إلي معدلاتها الحالية, ومن منطلق إنكار الخلق ينادي الفلكيون المعاصرون بفكرة الكون المفتوح أي الذي يتمدد إلي ما لا نهاية ولكن حسابات الكتل المفقودة

تؤكد انغلاق الكون, هذا الانغلاق الذي سيقف بتمدده عند لحظة في المستقبل يعود الكون فيها إلي الانكماش والتكدس علي ذاته ليعاود سيرته الأولى.

وبالتدريج بدأت فكرة تمدد الكون إلي حد ما في المستقبل تلقي القبول من الغالبية الساحقة من علماء الفلك والفيزياء الفلكية والنظرية, وان بقيت أعداد منهم يدعون إلي ثبات الكون حتي مشارف الخمسينيات من القرن العشرين, ومن هذه الأعداد جامعة كنبرج المكونة من كل من هيرمان بوندي,

وتوماس جولد، وفريد هويل. وقد قام هذا الفريق بنشر سلسلة من المقالات والبحوث في السنوات 1946 م، 1948، 1949 م دفاعاً عن النموذج الثابت للكون

ثم اضطروا إلى الاعتراف بحقيقة تمدده بعد ذلك بسنوات قليلة، ومن عجائب القدر بهؤلاء الجاحدين لحقيقة الخلق، المتنكرين لجلال الخالق سبحانه وتعالى المنادين كذباً بأزلية العالم، أن يكون أحد زعمائهم وهو فريد هويل الذي حمل لواء الادعاء بثبات الكون واستقراره وأزليته

لسنوات طويلة هو الذي يعلن بنفسه في سخرية لاذعة تعبير الانفجار الكبير للكون

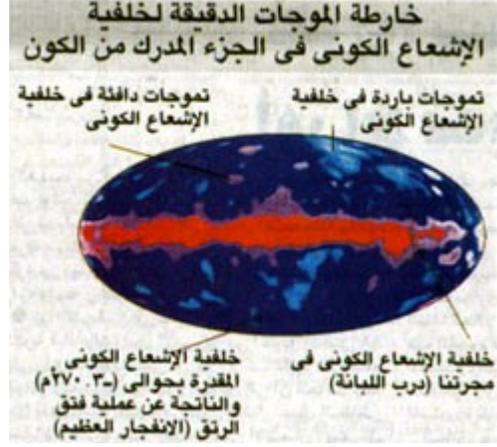
وذلك في سلسلة أحاديث له عبر الإذاعة البريطانية في سنة 1950 م ينتقد فيها ظاهرة تمدد الكون، ويحاول إثبات بطلانها، ثم جاء بعد ذلك بسنوات ليكون من أشد المدافعين عنها.

وكانت نظرية خلق الكون من جرم أولي واحد عالي الكثافة قد توصل إليها البلجيكي جورج لوميتر في سنة 1927 م وذلك في رسالة تقدم بها إلى معهد ماشوسيتس للتقنية، دافع فيها وفي عدد من بحوثه التالية عن حقيقة تمدد الكون، ولم تلق أبحاثه أي انتباه إلى أن جاء إدنجتون في سنة 1930 م ليلفت إليها الأنظار ومن هنا أطلق علي لوميتر لقب صاحب فكرة الانفجار الكبير في صورتها الأولى.

(2) بقايا الإشعاع الكوني كدليل على الانفجار العظيم:

في سنة 1948 م أعلن كل من جورج جامو وزميله رالف ألفر أن تركيز العناصر في الجزء المدرك من الكون يشير إلى أن الجرم الأولي الذي بدأ به الكون كان تحت ضغط وفي درجة حرارة لا يكاد العقل البشري أن يتصورهما، وعند انفجاره انتقلت تلك الحرارة إلى سحابة الدخان الكوني التي نتجت عن ذلك الانفجار، وسمحت بعدد من التفاعلات النووية التي أدت إلى تكون العناصر الأولية من مثل الإيدروجين والهيليوم.

وفي السنة نفسها 1948 م قدم كل من ألفر وهيرمان اقتراحاً بأن الجرم الابتدائي للكون كان له إشعاع حراري يشابه إشعاع الأجسام المعتمة، وأن هذا الإشعاع تناقصت شدته مع استمرار تمدد الكون وتبرده، ولكن لا بد أن تبقى منه بقية في صفحة السماء، إذا أمكن البحث عنها وتسجيلها، كانت تلك البقية الإشعاعية من أقوى الأدلة على بدء خلق الكون بعملية الانفجار الكبير. وفي سنة 1964 م تمكن اثنان من علماء مختبرات بل للأبحاث وهما أرنو بنزياس وروبرت ويلسون بمحض المصادفة من اكتشاف تلك البقايا الأثرية للإشعاع الحراري الكوني على هيئة ضوضاء لاسلكية محيرة تغد بانتظام إلى الهوائي الذي كانا قد نصباه لغاية أخرى من جميع الجهات في السماء حينما وجه الهوائي، وقدرتها بثلاث درجات مطلقة -270 درجة مئوية -.



في الوقت نفسه كان كل من روبرت دايك وتلميذه بيلز قد استنتجا من معادلاتهما الرياضية الفلكية أن النسب المقدره لغازي الإيدروجين والهيليوم في الكون تؤكد الكمية الهائلة من الإشعاع التي نتجت عن الانفجار الكبير وتدعم نظريته، ومع تمدد الكون ضعف هذا الإشعاع بالتدرج وانخفضت درجة حرارته إلي بضع درجات قليلة فوق الصفر المطلق -273 درجة مئوية-. في سنة 1965 م قام كل من بنزياس وولسون بتصحيح قيمة البقايا الأثرية للإشعاع الحراري الكوني إلي 2.73 من الدرجات المطلقة، وأثبتنا أنها من الموجات الكهرومغناطيسية المتناهية في القصر، وتقدر قيمتها اليوم بأقل قليلا من قيمتها السابقة 2.726 من الدرجات المطلقة.

في سنة 1989 م أرسلت مؤسسة ناسا الأمريكية إلي الفضاء قمرا صناعيا لجمع المعلومات حول الإشعاع الحراري الكوني أطلق عليه اسم كوب وزود بأجهزة فائقة الحساسية أثبتت وجود تلك الأشعة الأثرية المتبقية عن عملية الانفجار العظيم.

وكان في هذا الاكتشاف التفسير المنطقي لسبب الأزيز اللاسلكي المنتظم الذي يعج به الكون والذي يأتي إلينا من مختلف أطراف الكون المدرك، والذي بقي علي هيئة صدي لعملية الانفجار الكبير، وقد منح كل من بنزياس وولسون جائزة نوبل في سنة 1978 م علي اكتشافهما الذي كان فيه الدليل المادي الملموس لدعم نظرية الانفجار الكبير، والارتقاء بها إلي مقام الحقيقة شبه المؤكدة، ودفع بالعالية الساحقة من علماء الفلك والفيزياء الفلكية إلي الاعتقاد بصحتها، وسبحان الخالق الذي أنزل في محكم كتابه من قبل أكثر من ألف وأربعمائة سنة قوله الحق:

أولم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون (الأنبياء:30).

وبدء خلق الكون بعملية انفجار كبري هو من دلائل طلاقة القدرة الإلهية لأنه من المعروف أن الانفجار بطبيعته يؤدي إلي تناثر المادة وبعثرتها ولا يخلف وراءه إلا الدمار، أما هذا الانفجار الكوني الفتق بعد الرنق فقد أدي إلي إبداع نظام كوني له تصميم دقيق محكم الأبعاد والعلاقات والتفاعلات، منضبط الكتل والأحجام والمسافات، منتظم الحركة والجري والتداخلات، مبني علي الوتيرة نفسها من أدق دقائقه إلي أكبر وحداته علي الرغم من تعاضم أبعاده، وكثرة أجهزته، وتعقيد علاقاته، وانفجار هذه نتائج لا يمكن أن يكون قد تم بغير تدبير حكيم وتقدير مسبق عظيم لا يقدر عليه إلا رب العالمين، وقد أشار

العالم البريطاني المعاصر ستيفن وهوكنج إلي شيء من ذلك في كتابه المعنون تاريخ موجز للزمن الذي نشره في كندا سنة 1988 م ولكن إشاراته جاءت علي استحياء شديد نظرا لجو الإلحاد الذي يسود الغرب بصفة عامة في زمن العلم والتقنية الذي نعيشه، والكتاب مملوء بالاستنتاجات المؤكدة لحقيقة الخلق، وعظمة الخالق سبحانه وتعالى.

القرآن الكريم وخلق السماوات والأرض

في الوقت الذي ساد فيه الاعتقاد الخاطئ بأن الكون الذي نحيا فيه كان منذ الأزل، وسيبقى إلي الأبد، وأنه كون لا نهائي، أي لا تحده حدود، وأنه كون ساكن، ثابت في مكانه لا يتغير، وأن النجوم مثبتة في السماء التي تدور بنجومها كقطعة واحدة حول الأرض، وأن الكون شامل للعناصر الأربعة: التراب، والماء، والهواء، والنار، وحول هذه الكرات الأربع تدور السماء بنجومها، وغير ذلك من الخرافات والأساطير، في هذا الوقت جاء القرآن الكريم مؤكداً أن الكون مخلوق له بداية، ولا بد أنه ستكون له في يوم من الأيام نهاية، وكل مخلوق محدود بحدود لا يتجاوزها، ومؤكداً أن جميع أجرام السماء في حركة دائبة، وجري مستمر إلي أجل مسمي، وأن السماء ذاتها في توسع دائم إلي أجل مسمي، وأن السماوات والأرض كانتا في الأصل جرماً واحداً ففتقهما الله (تعالى) فتحولت مادة هذا الجرم الأول إلي الدخان الذي خلقت منه الأرض والسماء، وأن هذا الكون سوف يطوي ليعود كهينته الأولى جرماً واحداً مفرداً يفتق مرة أخرى إلي غلالة من الدخان تخلق منها أرض غير أرضنا الحالية، وسماوات غير السماوات التي تظننا في حياتنا الدنيا، وهنا تتوقف رحلة الحياة الأولى وتبدأ رحلة الآخرة.

وقد لخص لنا ربنا (تبارك وتعالى) عملية خلق السماوات والأرض وإفنائهما، وإعادة خلقهما في صياغة كلية شاملة من قبل أكثر من ألف وأربعمائة سنة، وذلك في خمس آيات من أي القرآن الكريم علي النحو التالي:

- (1) والسماء بنيناها بأيدٍ وإنا لموسعون (الذاريات:47).
- (2) أولم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون (الأنبياء:30).
- (3) ثم استوي إلي السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرها قالتا أتينا طائعين (فصلت:11).
- (4) يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين (الأنبياء:104).
- (5) يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات وبرزوا لله الواحد القهار (إبراهيم:48).

وهذه الآيات القرآنية الكريمة تشير إلي عدد من حقائق الكون الكبرى والتي منها:

- (1) توسع الكون منذ اللحظة الأولى لخلقه وإلي أن يشاء الله.
- (2) ابتداء خلق الكون من جرم أولي واحد (مرحلة الرتق الأول).
- (3) فتق هذا الجرم الأولي أي انفجاره (مرحلة الفتق الأول).
- (4) تحول المادة في الجرم الأولي عند فتقه إلي الدخان (مرحلة الدخان).
- (5) خلق كل من الأرض والسماوات من الدخان الكوني (مرحلة الإتيان بكل من الأرض والسماء).

(6) حتمية عودة الكون بكل ما فيه ومن فيه إلي جرم ابتدائي واحد مشابه للجرم الأولي الذي ابتداءً منه الخلق (مرحلة الرتق الثاني أو طي السماء أو الانسحاق الشديد للكون).

(7) حتمية فتق هذا الجرم الثاني أي انفجاره (مرحلة الفتق للرتق الثاني).
(8) حتمية تحول الرتق الثاني بعد فتقه إلي غلالة من الدخان الكوني.
(9) إعادة خلق أرض غير أرضنا الحالية وسماوات غير السماوات التي تظللنا اليوم وبداية رحلة الآخرة.

وهذه الحقائق الكونية لم يستطع الإنسان إدراك شيء منها إلا في القرن العشرين, حين توصل العلم الحديث إلي إثبات توسع الكون

في الثلث الأول من ذلك القرن, ثم اندفع بهذه الملاحظة الصحيحة إلي الاستنتاج المنطقي أننا إذا عدنا بهذا الاتساع إلي الوراء مع الزمن, فلا بد أن تلنقى جميع صور المادة والطاقة المنتشرة في الكون, كما يلنقى كل من المكان والزمان, وجميع ما في الكون من موجودات في نقطة واحدة تكاد تقترب من الصفر أي العدم علي هيئة ابتدائية للكون

أو (مرحلة الرتق), وأن تلك الهيئة الأولية كانت متناهية في الصغر, كما كانت بالقطع في مستوى من الكثافة ودرجة الحرارة لا يكاد العقل البشري أن يتصورهما فانفجرت (مرحلة الفتق), ونتج عن هذا الانفجار الكوني العظيم (الفتق بعد الرتق) تحول هذا الجرم الأولي للكون - المتناهي في ضآلة الحجم وضخامة الكثافة وشدة الحرارة - إلي غلالة من الدخان (مرحلة الدخان الكوني) الذي خلق الله (تعالي) منه الأرض والسماء (مرحلة الإتيان بكل من الأرض والسماء).

ويتوقف العلم المكتسب عند ملاحظة أن عملية التوسع الكوني لا يمكن لها أن تستمر إلي ما لا نهاية, وذلك لأن قوة الدفع إلي الخارج الناتجة عن الانفجار الكوني التي بدأت بعنف بالغ حتي اليوم في تناقص مستمر, وسوف يؤدي هذا التناقص التدريجي في سرعة توسع الكون إلي الوصول به إلي مرحلة تتغلب فيها قوي الجاذبية علي قوي الدفع إلي الخارج, فيبدأ الكون في الانكماش والتكدس علي ذاته حتي يعود إلي حالة مشابهة تماماً لحالته الأولي التي ابتداءً منها خلق الكون (مرحلة الرتق الأولي), ونعرف هذه المرحلة المستقبلية باسم مرحلة الرتق الثانية [أو الرتق بعد الفتق أو طي السماء أو مرحلة الانسحاق الشديد للكون

كما يحلو لبعض الفلكيين المعاصرين تسميتها].

وقد أخبرنا ربنا (تبارك وتعالى) من قبل أكثر من ألف وأربعمائة سنة أنه (سبحانه) قد تعهد بإعادة السماوات والأرض إلي سيرتها الأولي وذلك بقوله في محكم كتابه (عز من قائل):
يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين (الأنبياء:104),

وليس من قبيل المصادفة أن ترد الآيتان رقم (30) وهي المتعلقة بخلق الكون (الفتق بعد الرتق), ورقم (104) وهي المتعلقة بإفناء الكون (الرتق بعد الفتق) في سورة واحدة وهي سورة الأنبياء.

ولولا أن الله (تعالى) قد تعهد بإعادة خلق أرض غير أرضنا، وخلق سماء غير سمائنا، وأخبرنا بذلك من قبل أكثر من ألف وأربعمائة سنة في محكم كتابه وذلك بقوله (عز من قائل):

يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار (إبراهيم: 48).

ما كان أمام العلوم المكتسبة من سبيل إلي معرفة ذلك.

هذه الحقائق الكونية الكبرى في خلق السماوات والأرض، لم يستطع الانسان الوصول إلي إدراك شيء منها إلا في منتصف القرن العشرين أو بعد ذلك، حين تبلورت نظرية فلكية باسم نظرية الانفجار العظيم

وهذه النظرية هي الأكثر قبولا عند علماء الفلك وعلماء الفيزياء الفلكية والنظرية في تفسير نشأة الكون، وقد سبق القرآن الكريم بالإشارة إليها من قبل أكثر من ألف وأربعمائة سنة وذلك بقول الحق تبارك وتعالى. أو لم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون (الأنبياء: 30).

والرتق: في اللغة عكس الفتق، لأن الرتق هو الضم والالتحام والالتئام سواء كان ذلك طبيعيا أو صناعيا، يقال رتقت الشيء فارتق أي فالتأم والتحم. والفتق: لغة هو الفصل والشق والانقطاع.

والمعنى الواضح لنا من هذه الآية الكريمة أن السماوات والأرض كانتا في الأصل شيئا واحدا متصلا، ملتئما، وملتحما، ففتقه ربنا تبارك وتعالى بأمر منه سبحانه إلي الأرض التي نحيا عليها، وإلي سبع سماوات من فوقنا. والقرآن الكريم هنا يعطي الصورة الكلية الجامعة لهذا الحدث الكوني العظيم، ويترك التفاصيل لجهود العلماء والمفكرين الذين يتفكرون في خلق السماوات والأرض، والذين تجمعت ملاحظاتهم العلمية الدقيقة في صفحة السماء لتؤكد في منتصف القرن العشرين صدق ما قد أنزله الله تعالى في آخر كتبه، وعلي خاتم أنبيائه ورسوله (عليه وعليهم أجمعين أفضل الصلاة وأزكى التسليم من قبل ألف وأربعمائة من السنين).

هذا السبق القرآني بحقيقة الفتق بعد الرتق يجعلنا نرتقي بنظرية الانفجار الكوني العظيم إلي مقام الحقيقة، ونكون هنا قد انتصرنا بالقرآن الكريم للعلم المكتسب، وليس العكس، والسبب في لجوئنا إلي تلك النظرية لحسن فهم دلالة الآية القرآنية رقم 30 من سورة الأنبياء هو أن العلوم المكتسبة لا يمكن لها أن تتجاوز مرحلة التنظير في القضايا التي لاتخضع لحس الانسان المباشر أو ادراكه المباشر من مثل قضايا الخلق والافناء وإعادة الخلق خلق الكون، خلق الحياة، وخلق الانسان وصدق الله العظيم اذ يقول: ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضدا (الكهف: 51).

كذلك فإن نظرية الانسحاق الكوني العظيم

يرتقي بها إلي مقام الحقيقة قول ربنا تبارك وتعالى:

يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا انا

كنا فاعلين (الانبياء:104).

هذا السبق القرآني بالإشارة إلى حقيقة الفتح بعد الرشق أو ما يعبر عنه بالانفجار الكوني العظيم, وإلى حقيقة توسيع السماء أو تمدد الكون, وإلى حقيقة الخلق من الدخان, وإلى حقيقة الرشق بعد الفتح طي المساء أو الانسحاق الكوني العظيم, وإلى حقيقة إعادة خلق أرض غير الأرض وسماوات غير السماوات الحالية, وإلى العديد غيرها من الحقائق التي صاحبت خلق السماوات والأرض أو التي تلازمهما اليوم, أو التي سوف تحدث عند إفناء الكون, هو من أعظم الشهادات بأن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق, ولا يمكن له أن يكون كلام أحد غير الله, كما يشهد لهذا النبي الخاتم صلي الله عليه وسلم بأنه كان موصولا بوحى السماء, ومعلما من قبل خالق السماوات والأرض, حيث انه لم يكن لأحد من الخلق علم بهذه الحقائق الكونية الكبرى في زمن الوحي, ولا لقرون متطاولة من بعد نزوله:

وتشهد هذه الآيات الكونية الواردة في كتاب الله وأمثالها من الآيات القرآنية الأخرى المتعلقة بالكون وطواهيره وبعض مكوناته بالدقة والشمول والكمال, وبالصياغة المعجزة التي يفهم منها أهل كل عصر معنى من المعاني يتناسب مع المستوى العلمي للعصر, وتظل هذه المعاني تتسع باستمرار مع اتساع دائرة المعرفة الانسانية في تكامل لايعرف التصادم, وهذا عندي من أبلغ جوانب الإعجاز في كتاب الله.